

إسهامات المعتزلة في الدرس البلاغي العربي الجاحظ أنموذجاً.

The contributions of the Mu'tazila to the Arabic rhetorical

Aljahiz as a model.

هاجر بوعكاز¹¹ جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2026/01/09 تاريخ القبول: 2026/05/04 تاريخ النشر: 2026/06/01

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى إبراز دور الفرقة الكلامية المعتزلة في خدمة الدرس البلاغي العربي، محاولين إعطاء صورة متكاملة عن علمائها وشيوخها الذين كان لهم تأثيراً مباشراً في تأسيس الملامح الأولى للبيان العربي، مبرزين منطلقاتهم الفكرية القائمة على العقل والحجة، ثم محاولة إرساء حدوده ومفاهيمه خاصة مع الجاحظ في النصف الثاني من القرن الثالث. كانت أهم النتائج المتوصل إليها في هذه الدراسة أن المعتزلة هي الرافد الأول، لتأسيس البلاغة العربية، ويعد الجاحظ أهم شيوخها في البيان العربي، والذي استمد معارفه وأصوله المعرفية من أستاذه المعتزلي، زعيم المدرسة الاعتزالية في بغداد بشربن المعتمر، وذلك بما ضمه من مفاهيم في تأسيس مقومات العملية الخطابية الناجحة.

(مخاطب/ مخاطب، خطاب)، وفي حديثه عن شروطه المتصلة بهذه الأقطاب الثلاثة، التي إن غابت تنافت معها البلاغة. كلمات مفتاحية: البلاغة العربية، الفرق الكلامية، المعتزلة، المناظرات، الجاحظ

Abstract:

This article aims to highlight the role of the Mu'tazila theological school, in serving the study of Arabic rhetoric, attempting to give a complete picture of its scholars and religious leaders who had a direct influence on establishing the first features of Arabic rhetoric, highlighting their intellectual premises based on reason and argument. Then an attempt to establish its boundaries and concepts.

The most important findings of this study were that the Mu'tazilites were the first source for the establishment of Arabic rhetoric, and Al-Jahiz is considered the most important of its sheikhs in Arabic eloquence, who derived his knowledge and epistemological principles from his Mu'tazilite teacher, the leader of the Mu'tazilite school in Baghdad, Bishr ibn al-Mu'tamir, with what he included of concepts in establishing the components of the successful rhetorical process and in his talk about its conditions related to these three poles, if they are absent, eloquence, fluency it.

Keywords Arabic rhetoric, theological sects, Mu'tazilites, theorists, Al-Jahiz.

*المؤلف المرسل: هاجر بوعكاز

1. مقدمة

كثيرا ما يثيرنا التراث العربي ويجعلنا نعود إليه في أكثر من مناسبة، متصفحين صفحاته، ومستبصرين في آياته المعرفية، وذلك لما ضمه من علم جمّ في مختلف فروع المعرفة، من أدب، وفلسفة، وتاريخ، وسير، وأساطير وغيرها، ولما وُجد فيه من عقل وحكمة بالغة، تَفَوَّق بها العربي على الشعوب المجاورة له أو البعيدة، والمختلفين عنه لسانا وشرعة، فوجدت مصنفاته في مختلف رفوف المكتبات العالمية، لأنّه يعبر عن حضارة أمة، كانت في أوج عطائها الفكري، فلذلك لا يمكن الاستغناء عن هذه الذخيرة المعرفيّة، والركون إلى فروع المعرفة المعاصرة والتغافل عنه.

والبحث في ثنايا التراث العربي عن مطايا المعرفة والعلوم وصناعة الفكر وتأسيس أطر الحياة المختلفة، يتطلب وعيًا تامًا؛ لأنّ الخوض فيه ليس مجازفة بحثية، أو الشك والريبة في هذا النبع الحضاري غزير المادة العلميّة، وكثير الصناعة الحضارية في كل النواحي الإنسانيّة، فهذا التراث أعطى للفرد والمجتمعات صورًا راقية عن الفكر الإنساني وتحضره، وما زالت مشاهد التأمّلات العقليّة، والبحوث الإنسانيّة والإبداعية تنظر فيه وتستقي منه مشاهد الجمال، ومختلف التنظيرات الفكرية، التي تفيد وتستزيد منها الأجيال المتعاقبة.

إنّ تراثنا العربي يعطينا صورةً متكاملةً عن بيئات علميّة مختلفة المشارب، متعددة المناهج، كثيرة الطرح والتساؤل، جمعت بين الوصف والتحليل والتنظير، في تأسيس المادة العلمية، وعرضها وفق رؤية خضعت في الكثير من المواضيع إلى البسط الموسع لمختلف القضايا اللغوية كانت أو أدبية أو دينية أو فلسفية، وفي كل هذا كانت تروم وضع قاعدة متينة لبناء علم حضارة سيشهد لها عبر التاريخ.

لم يكن العربي القديم وهو يبحث في غمار الحقيقة المعرفية، وفي ثنايا أوراقه تنقيحًا وزيادةً وابتكارًا، يستشرف المعرفة الكاملة، لكنّه كان يؤمن أن العلم بوابة إلى التقدم والازدهار، خاصة أنّه في أمة نزل عليه الوحي الأمين، بلسان عربي مبين، وهي أمة تقُدس الكلمة الأولى التي نزلت على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم "اقرأ"، فكانت الكلمة التي أخرجت أمة من الظلمات إلى النور.

ونحن نبحت في هذا التراث، تطالعنا المعتزلة الفرقة الكلامية، التي تعتبر أحد أهم روافد المعرفة العقلية التي ساهمت بقدر غير يسير في نشر وكتابة فصل كبير من المعرفة في الحضارة الإسلامية، وهي إن كانت دينية المنشأ، إلا أن لها إسهامات كبيرة في الدرس البلاغي العربي، وكانت من أهم روافد تأصيلها.

إنّ هذه الفرق الكلامية قد أعطت وجادت من خلال علمائها في خدمة الحضارة الإسلامية، وشقت لنفسها شرعة خاصة في معالجة العديد من القضايا الدينيّة واللغويّة، خدمة لبيئتهم الفكرية، من خلال النظر في مسائل القرآن والعقيدة بالدرجة الأولى.

جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على المعتزلة، وإبراز دورها في خدمة وتأصيل الدرس البلاغي بصفة أكثر خصوصية.

انطلقت هذه الدّراسة من الإشكاليّة الآتية: «كيف ساهمت المعتزلة في خدمة الدرس البلاغي العربي؟ وما هي أبرز هذه المسائل البلاغية؟ وهل أضافت جديدًا؟ أم أنها تناولت مكرورًا معادًا من المسائل البلاغية؟».

وللإجابة على هذه الإشكاليّة، اتّبعنا منهجيّة تقوم على مقدّمة، وهي عبارة عن مدخل عام لموضوع البحث، ثمّ العرض، وقدّمنا فيه مفاهيم نظرية للفرقة الكلامية المعتزلة، ثم تناولنا أهم إسهامات الجاحظ البلاغية باعتباره من أهم شيوخ المعتزلة في القرن الثالث

2. من هم المعتزلة:

تعددت الفرق الكلامية في الإسلام، فنجد الخوارج، والاباضية، والأشاعرة، والمعتزلة، وهذه الفرق كانت تعتمد الكلام والحجة في معالجة القضايا الدينية. يعرف الفارابي علم الكلام فيقول: « وصناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان عن نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل» (محمد، 1991، صفحة 41)

والمعتزلة هي أشهر هذه الفرق الكلامية كما ذهب إليه بعض الباحثين «المعتزلة هم الواضعون لدعائم علم الكلام الإسلامي، فهم تأسس وبجهودهم تطورت موضوعاته، بما أضافوا إليه من مباحث جديدة، أثرت موضوعاته، وكان لهم دوراً رئيسياً في تطويره وصياغة مشكلاته ومعالجتها معالجة جادة هي أقرب إلى روح التفلسف» (الصالح و السيد، 2001، صفحة 219). فقد كان لهم شأن في صناعة منهج قائم على الجدل والحجة الكلامية، وهي الركيزة الأساسية لعلم الكلام، الحجة الكلامية، والجدل العقلي.

وللمعتزلة أسماء كثيرة عرفت بها في التاريخ الإسلامي: «وقد أطلقت على علم الكلام أسماء كثيرة، فهو علم أصول الدين، وهو الفقه الأكبر، ويسمى بعلم النظر والاستدلال، ويسمى أيضاً بعلم التوحيد والصفات، وسي أيضاً بعلم الشرائع والأحكام، وسي أيضاً بعلم العقائد الإسلامية» (الصالح و السيد، 2001، صفحة 220). وإنما كان الشهرة لمصطلح (علم الكلام)، بما يحققه من مقاصد عقلية ومنطقية هي أقرب إلى روح الفلسفة، التي تتخذ من العقل مطية لها.

3. تأثير المعتزلة في الدرس البلاغي العربي:

لقد كان للمعتزلة مدرستين كبيرتين، وكلاهما ساهم في خدمة الدرس البلاغي، هي المدرسة البصرية والمدرسة البغدادية، وشيوخها هم واضعو الأسس الأولى للبلاغة العربية «والمعتزلة هم واضعو أصول البلاغة إذا كانوا هم المحتاجين إليه في الدعوة وإقامة الحجج، فوضع منهم بشر بن المعتمر الصحيفة الخالدة في البلاغة، وجاء بعده الجاحظ وهو ما هو في البلاغة وفنونها» (أمين، 2012، صفحة 371) فقد كان بشر بن المعتمر (ت 210هـ) أديبا وشاعرا ومتكلما يحسن اللغة ويتقنها بلاغة وفصاحة، وصحيفته الشهيرة، جاءت في بضع أسطر لكنها ضمت من الكلام ما يمهد لاحقا للخوض في مسائل بلاغية، كان بشر له السبق فيها، والربيع الأول الذي تنطلق منه الدراسات وتتعاقب عليه الأقوال، وهذا هو شأن العلم؛ تراكمي، الأول يبذل وله فضل السبق، والثاني يأخذ عنه ويزيد، والثالث ينظر للسابقين ويبني عليهم ويزيد، وكل يصنع النظرية، ويوطن للإنسانية سبل المعرفة الرصينة، ويخدمها كل في مجاله ومركزه، فالجاحظ (ت 255هـ) قد أتى بعد بشر بن المعتمر وأفاد واستفاد مما ورد في الصحيفة.

عني شيوخ وأدباء المعتزلة بالكلام عناية كبيرة، وكانوا يحرصون حرصاً كبيراً على بلاغة وفصاحة كلامهم، وإنه لمبدأ لازموه لزماً، حتى تستقيم لغتهم، ويكون موضعهم في النقاشات والجدل الذي هو أساس علم الكلام موضع المقتدر، والخطيب المسمع، والبليغ المفلح إذا قال أقنع، وأثر في المتلقي السامع، وأماله إلى بيئته ميلاً، وهو مدار عليه الأمر وإليه الغاية، يقول شيخ المعتزلة الجاحظ (ت 255 هـ) في ذلك: « وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة، والعالم عندنا هو الذي يجمع بينهما» (الجاحظ، الحيوان، 1988، صفحة 132). ما يعني أن التمكن في الفلسفة بما تفرضه من سنن بمنهجها المنطقي والعقلي، باب من أبواب تعلم علم الكلام، بل الرئيس البليغ الفصيح المفلح ما

جمع بين الفلسفة وعلم الكلام، خاصة وأنّ الفلسفة تعتمد على الاستدلالات والاستقرارات العقلية، والحجج والبراهين في دحض المواقف أو تثبيتها، فهي تنظر إلى جميع المعارف الكونية، وتستمد أسئلتها من الوجود ككتلة متلاحمة، فلا تنسى شيئاً إلا وقالت فيه، وقول الفلسفة أقوال متشعبة ومختلفة، والجدال فيها سنة لا بد منها، والدين مسائل عقيدة، والخوض فيه يتطلب عقلاً راجحاً، ومعرفة مقاصده وأبوابه، فهو هو عقيدة أمة بكاملها وشريعته التي تستمد منها قوانينها التنظيمية، وبه تنظم الحياة الاجتماعية اليومية، لأنه يمثل السلطان الرادع للظالم، والمثبت للحق، وهو الأقرب للحياة البشرية، نشأ عليه الفرد من الفطام إلى اللحد، «وقد وصل بهم أمر الحرص على تعلم أساليب وفنون القول، وأسرار ومهارات إقناع الخصوم إلى حد أن زعماء تلك المذاهب كانوا يعمدون إلى تدريب تلامذتهم على أساليب المناظرة الصحيحة» (الربيعي، 2001، صفحة 50). لأن شيوخ المعتزلة أدركوا ما للكلمة من سلطة في تغيير العقول، وشحن الهمم، والتأثير في التلميذ لا يكون إلا إذا كان المعلم على قدر عالي من المعرفة، والمناظرة تقوم على الحجج والبراهين العقلية، ناهيك عن توظيف زبد القول وحسنه، حتى يصل إلى قلوب السامعين فيؤثر فيهم، ويأخذهم إلى صفه، وهو المعول عليه، والهدف منه. «ففي المجال الأدبي نجد النظام أدبياً جدلياً يغوص، في النثر والشعر، على المعاني الرقيقة الدقيقة ويصوغها في قالب من التعبير الظريف الرهيف مما لم يكن للأدباء بيه كبير عهد» (العوا، دس، صفحة 51). فقد كان بليغا فصيحاً أخذ بناصية اللغة، وهذا ما أورده صاحب طبقات المعتزلة، «قيل وله أشعار تأخذ بالقلب والسمع ملاحه» (المرتضي، 1988، صفحة 51). فالتمكن من اللغة يعني التمكن من الجدل، وهو الشرط الأول الذي يقوم عليه علم الكلام، كما عد الجاحظ من شيوخ البلاغة العربية «وعد ركناً من أركان الأدب العربي والبلاغة ربما في جميع عصور الأدب العربي» (العوا، دس، صفحة 107). حيث يستحيل أن تتطرق إلى عنصر البلاغة والفصاحة ولا نشير إلى ما ذكره الجاحظ وما تحدث عنه بإسهاب ودقة وطرافة، في عناصر الخطاب الكلامي، وشروط نجاعة العملية التواصلية، فالشيخ يعد طفرة في تاريخ التأليف البلاغي، والممار والناظر في كتبه ومصنفاته المختلفة (البيان والتبيين، والحيوان، والبغلاء، ورسائل الجاحظ)، سيعثر على فكر ثاقب، وعقل فتش في أغوار اللغة واستخرج زبدها، فكان مستبصراً حكيماً، جال بقلمه وأعطى فأدهش، ومازلت تعزى إليه إلى يومنا ملامح الابتكار والسبق في الكثير من القضايا.

ومما رواه المبرد (ت 286 هـ) في شيخ المعتزلة واصل بن عطاء (131 هـ) في بلاغته وفصاحته «وكان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب، وذلك أنّه كان ألثغ قبيح اللثغة في الرءاء، فكان يخلص كلامه من الرءاء، ولا يفتن لذلك، لاقتداره وسهولة ألفاظه» (المبرد، دس، صفحة 34). «وكان واصل بن عطاء يضرب به المثل في إسقاط حرف الرءاء من كلامه» (خلكان، 1988، صفحة 08). إنّ هذه السجّية التي فطّر واصل بن عطاء نفسه عليها، إنّما لوعيه أنّ البلاغة هي شطر الحسن، وأن الخطاب كلما خلت ألفاظه من العيوب الصوتية أو النطقية، كانت أكثر عملاً في الأذان، وتأثيراً في النفوس والقلوب، وأن العيوب النطقية أو ما يسمى في وقتنا المعاصر بـ (أمراض الكلام) هي ضعف وقلة قدر للمتكلم، بل ويكون موضع تقليد الآخر له، إسقاطاً من مكانته، فيسقط بذلك شأن المتكلم، وتُنتَقَى البلاغة منه، فينفر عنه الجَمْعُ، ولا يؤخذ عنه ومنه كلاماً أو رشداً، «ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، رام أبو حذيفة إسقاط الرءاء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقة» (الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 34). وهو جهد مضني وشاق، أوقف السامع والراشد، وجهابذة البيان العربي، فأصبح واصل بن عطاء المعتزلي، من موضع الضعف إلى موضع القوة، يضرب به المثل في حسن البيان والبلاغة، وهو نموذج بيّن للقول العقلي، فبعج لنفسه منهجاً أكد فيه أن معجم العربية معجم مترادفات، وبحر زاخر من الخيارات اللفظية، لا تنفلق إلا لمتمرس عرف اللغة حق معرفة، وصال وجال فيها، وأحكم لنفسه توازناً استشرف به الآفاق المعرفية.

لقد كانت المناظرات وما تقوم عليه من أسس جدلية، من قوة الحجة، وبيان اللغة، وسلامة المنطق، من الأسباب المباشرة لعناية أصحاب المعتزلة بلغتهم أيما عناية، بلاغةً وفصاحة ونطقاً، «فكثر الحديث في قوة الحجج وفي وضوح العبارة ودقتها وفي جهرارة الصوت، وفي ملامح المتكلم وفي ملاءمته بين كلامه والمستمعين» (ضيف، 1955، صفحة 33) ففهموا أنّ البلاغة هي مخاطب، ومخاطب وخطاب، وما يحيط بالعملية الخطابية من ظروف إنشائية، تساهم في إيصال الرسائل موضع النقاش والجدل، إلى المتلقي فيفهمها ويقنع ويعمل بها، أي ما يسمى في الدراسات التداولية المعاصرة بـ (المقصدية)، التي نطلق من المتكلم لتقصّد إحداث أثر في المستمع.

4. منطلقات الفكر الاعتزالي في التأسيس لعلوم البلاغة العربيّة:

إنّ من أول ما ينطلق منه في تبيان التأثير الذي قدمه المعتزلة في خدمة البيان العربي، هو الانطلاق من البدايات الأولى للوعي العقلي بخصائص اللغة العربيّة في بيانها، وبخصائص الكلام الصحيح، وهذا حسب الدارسين بدأ مع زعيم المعتزلة في بغداد، "بشر بن المعتمر" في صحيفته الشهيرة في التراث العربي، أوردها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، حيث «تمتلك هذه الصحيفة قيمة مزدوجة في ذاتها من حيث كونها جمعت آراء ناضجة في البلاغة والخطابة، وأساليب الكلام الصحيحة بحيث إنها تعتبر خير ما أثر عن المعتزلة في البلاغة في أوائل القرن الثالث» (الربيعي، 2001، صفحة 89) وهي الفترة التي عرفت الدولة الإسلامية حدث الانفتاح على الأمم والشعوب، فزادت حاجة الناس إلى التعلّم ومعرفة أسس وتعاليم هذا الدين القويم، وهي أيضا الفترة التي كثرة الأقوال في النصّ القرآني المحكم آياته وزاغت عن الصراط المستقيم، فلذلك كان بشر بن المعتمر ومن معه من شيوخ المعتزلة يكافحون كفاح العالم الورع في سبيل تبيان مقاصد الشريعة الصحيحة، ومحاولة التأثير بأسلوبهم في المتلقي المستمع وإقناعه بالحجة والبرهان، «فقد أصبح الاهتمام بالبلاغة والخطابة، وتعلم أصول القول وفن الكلام كبيرا، وأصبحت مسأله تطرح في المجالس وحلقات الدرس، (...) وقد أعد بشر فيما يبدو صحيفته البلاغية لهذه الغاية التعليمية» (قصاب، 1991، صفحة 39)

والصحيفة عبارة عن بعض النصائح الموجهة لمستمع الكلام، وكيف يستعمله ومتى يستعمله؛ أي الطريقة الصحيحة للكلام، « وقد نصح فيها الكاتب بأمور تعد من صميم علم البلاغة، وينبغي مراعاتها وقت الكتابة كتخير الوقت المناسب في الكتابة حتى يخرج سهلا وتلاؤم الألفاظ، ونظم الكلام، فلا يكون أحدها نافرا عن إخوانه، أو موضوعا في غير موضعه (...) وقد كانت هذه الصحيفة ذات أهمية عظيمة لمؤرخي البلاغة، وفتحا جديدا لعلم المعاني» (القادر، 1998، صفحة 32). فيلاحظ أنّ من بين المسائل البلاغية التي قال بها بشر بن المعتمر:

■ تخير الوقت المناسب للكتابة: فليس كل وقت تفصح اللغة عن مكنونها في نفس المتكلم، أي مراعاة ظروف المتكلم والسامع.

■ تلاؤم الألفاظ وسهولتها: فكما أنّ للحروف تنافر بسبب قرب مخارجها، فإنّ للألفاظ تنافر، لتقارب مخارج الألفاظ بعضها ببعض

■ نظم الكلام وتأليفه بطريقة سليمة صحيحة، وهذه تتطلب علما بأصول النحو ومباحثه وفروعه بصفة أكثر خصوصية، وقد أكد على هذه المسألة شيخ البلاغة العربيّة عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس (ت 471 هـ)، فيما يعرف بمعاني النحو في قوله بنظرية النظم .

لما كان علم الكلام يُعنى بالنظر في المسائل الدينيّة والخوض فيها، فإنّ ذلك يعني القراءة التأويلية للقرآن الكريم، ومحاولة فهمه وتقديم وجهة نظر كلامية في العديد من نصوصه الكريمة، محاولين استيفاء القول في

المسائل مدار الاختلاف التي كثرت أبوابها، وتعددت مناهج قراءتها، واتسع القول البين بين الفرق الكلامية، بين القبول والرفض، وبين الوسطية والزيغ والضلالة، وهي كثيرة مبسطة في كتب الفقه والدين.

نشأت المعتزلة في عصر كثرت فيه الملل والنحل، وظهر فيه اللغظ والزيغ في مسائل القرآن، وأخذت كل شرعة تنتصر لنفسها، وتعلي صوتها، باطلاً كان أم حقاً، وتنصب نفسها أنها الأحق بالاتباع، فكان أن ظهرت هذه الفرقة محاولة التصدي لهذه الأباطيل، منتصرة للدين الحق القويم، فراحوا «ينصبون أنفسهم للدفاع عن الدين أمام خصومه من أصحاب الملل والديانات، ويتصدون لخصومهم من أصحاب الفرق الإسلامية الذين كانوا يختلفون معهم في الرأي، (...) وذلك كله لا يؤتاها إلا امرؤ بليغ فصيح، متمكن من أساليب الكلام أفانين القول، ومن هنا كانت البلاغة أداة لا بدّ منها لهذه الطائفة» (قصاب، 1991، صفحة 31). فالمعتزلة أصل نشأتها كانت غاية شريفة، الدفاع عن الدين الإسلامي، والتعصب له، فكان هناك نفر من المعتزلة الذين اشتهروا بالقول العميق في مسائل اللغة والبيان، فنظروا في الشعر وأحيوا فيه شذرات بلاغية بسطت في كتبهم، كما نظروا في لغة القرآن الكريم بتأن عميق، وعقل ثاقب فاستخرجوا دررا من القول، ومحاسن البيان وبديعه؛ كيف لا وهو أرق الخطابات التي عرفتها الإنسانية، فمهما نُظِر في الشعر، وقيل فيه، فإن النص الرباني فوقه؛ يعلو ولا يُعلى عليه، والمعتزلة حسب الجاحظ هم «كبار المتكلمين، ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ كثير من البلغاء» (الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 139).

كانت المعتزلة واحدة من هذه الفرق التي تسابقت للقول العقلي في مسائل القرآن، أي التفسير بالعقل والرأي، متجاوزين السلف الصالح، أو النظري المأثور، أو هو المنهج التاريخي كما سماه البعض، هذا الكتاب الكريم الذي أحكمت آياته من لدن حكيم عليم، وقد كانت قضية الإعجاز باب اتصال علم الكلام بعلم البلاغة، «والحقيقة أن هناك نقطتي لقاء بالغة الأهمية بين علم الكلام من ناحية والبلاغة من ناحية أخرى (...) وأولى هاتين النقطتين وأهمهما قضية الإعجاز القرآني، فلقد كانت هذه النقطة واحدة من أهم القضايا التي عني بها علم الكلام منذ نشأته» (زايد، 1982، صفحة 13). لأن البحث في قضية الإعجاز القرآني كانت لزماً على كل من أراد البحث في لغة القرآن الكريم، لأنها مدار العجز، ونقطة الفصل التي تضاءلت عندها لغة العرب، وأشرف البلاغة في قريش ومكة وسائر بلاد العرب. «وتبرز لنا في هذا المجال أسماء عديدة من علماء ومتكلمي المعتزلة أدلوا بدلوهم في هذا المضمار أي مضمار دراسة أسرار الإعجاز القرآني، ومنهم الزمخشري المفسر المعروف للقرآن الكريم، وصاحب تفسير الكشاف الشهير الذي بلغ من الروعة والكمال والقيمة للقرآن الكريم، حدًا حمل خصوم المعتزلة أنفسهم على الاعتراف بقيمته والاستناد إليه كمصدر هام من مصادر التفسير البلاغي للقرآن الكريم» (الربيعي، 2001، صفحة 52). والمطلع على تفسير الزمخشري يلاحظ القيمة الكبيرة المضافة لمباحث البلاغية في تفسير آيات الذكر الحكيم، فنلاحظ أنه انتهج أسلوباً بديعاً في فهم النص القرآني، جمع بين الفكر الثاقب، والعقل المتدبر الذي غاص في أعماق الآيات، ولم يكتف بالسطحي المباشر، فاستخرج معاني ودلالات جديدة، وشرعته في ذلك العقل أو السلطان كما يصفه، يقول «امش في دينك تحت راية السلطان، ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان» (الزمخشري، 1998، صفحة 21). دعوة صريحة أنّ العقل هو أساس الانطلاق؛ إذ يصفه بالسلطان الذي يوجب الولاء والطاعة، والانقياد لأمره، واتباع أوامره، وتجنب نواهيه، وما قول الزمخشري إلا قولاً تطمئن إليه هذه الفرقة وتركن إليه، أو هو قول يختصر توجه هذه الفرقة؛ أي العقل أولاً.

والبحث في قضية الإعجاز القرآني من أهم ما استفادت منه البلاغة في التأسيس لمباحثها، «كما هو الشأن في كتاب النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن الرماني، الذي يعدّ واحداً من الكتب الرائدة حول قضية الإعجاز القرآني،

وهو في الوقت ذاته واحداً من المصادر الأساسية الأولى في البلاغة العربية، فالجانب البلاغي في هذا الكتاب طاغ على الكلامي» (زايد، 1982، صفحة 50). والنكت لفظ يحمل معنى اللطائف، أي لطائف لغة القرآن الكريم، وما تحدّثه من أثر في المتدبر والمستبصر، وليس المتدبر كالقارئ والمرتل، وتلك مسألة أخرى.

5. إسهامات الجاحظ المعتزلي في الدرس البلاغي العربي:

الجاحظ من شيوخ البلاغة العربية حتى النصف الأول من القرن الثالث (ت 255)، وما قدمه للبلاغة العربية لا يخفى على أي باحث أو عالم أو طالب علم، فهو الذي يحدثنا في كتابه النفيس "البيان والتبيين" عن شروط الفصاحة والبلاغة، ويجول في كتابه ويصوّل ويقدم مشاهد أدبية وفكرية تتقاطع تقاطعا مباشرا مع البيان العربي «ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الجاحظ يعد غير منازع مؤسس البلاغة العربية» (ضيف، 1955، صفحة 57). فالجاحظ أورد في كتابه في العديد من المواضع الحياة الأدبية للعربي، ويتخلل ذلك شواهد شعرية وآيات بيّنات من الذكر الحكيم، فتعرف في أسلوبه سمة البيان الناضج، والعقل الثاقب الراجح، وهو على أصول المعتزلة في ذلك "الاستنباط العقلي والحجة والبرهان"، «والناظر في مادة الكتاب [البيان والتبيين] يدرك أنها نسيج مزدوج هي منتقيات عربية إسلامية تتخللها تعليقات واستطرادات شخصية، وهكذا ينطلق الجاحظ من نصوص أدبية ودينية شعرية ونثرية فيحاول أن يصوغ لنفسه نظرية في البلاغة» (المسدي، 1992، صفحة 103). تلك النظرية التي نجد لها ملامح التفكير العقلي المتزن في تأسيس مفهوم الخطاب بما يضمنه من عناصره الأساسية الثلاث (المخاطب، والمخاطب، والرسالة).

إنّ ملامح مفهوم الخطاب وتجلياته عند الجاحظ بدت في تناوله لقضايا تتقاطع مع الخطاب، وهي الخطابة والبيان والكلام، وقد كانت هذه العناصر الثلاثة مدار ما جاء في مصنفاته، فتناولها تارة في كتابه البيان والتبيين وتارة في الحيوان، وتارة أخرى في رسائله، وهو يحدد شروط الكلام البليغ، فالرجل كان واعيا أن للكلام البليغ شروطا، يتفاضل على أساسه ويصنف.

يرى "حمادي صمود" أن الجاحظ كان سباقا للكشف عن شروط نجاعة العملية الخطابية «ولا تقتصر أهمية ما تفتن إليه الجاحظ على ما فيه من مظاهر الحداثة والمعاصرة، فقد اهتدى في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية والبلاغية إلى ما يحف بظاهرة الكلام من الملابس، وهو أول مفكر عربي تقف في أرائه على نظرية متكاملة تقدر أن الكلام، وهو المظهر العلمي لوجود اللغة المجرد، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه (...) جملة من العوامل كالسامع والمقام وظروف المقال» (صمود، 1981، صفحة 185). فالجاحظ يتحدث عن الخطاب كبنية لغوية، تنطلق أسسه من المتكلم وتقصد السامع، وفق شروط خاصة، بالكلام والمتكلم، نعرض لها لاحقا.

لقد تحدث الجاحظ عن الكلام ونظيره الصمت، لكنه أعطى للكلام أفضلية عليه في الأداء الخطابي والتواصلي، لذلك نجده في أكثر من موضع يتحدث عن الكلام وخصائصه «وكيف يكون الصمت أنفع، والإيثار له أفضل، ونفعه لا يكاد يتجاوز صاحبه، ونفع الكلام يعم ويخص، والرواة لم ترو سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين، وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت» (الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 172). فنظير الكلام هو الصمت، لكن الأفضلية للكلام، لأنه يؤدي مقاصد تبليغية، ورسائل متعددة الغايات، أينما يوجها المتكلم تكون، و للكلمة سلطة أكبر على الصمت، الذي يُنتفى معه التواصل، ولا يحقق إلا أهدافا محدودة تكون في نفس المتكلم، كما يقول الجاحظ في سياق آخر «إن الكلام صار أفضل من الصمت لأن نفع الصمت لا يكاد يعدو الصامت، ونفع الكلام يعم القائل والسامع، والغائب والشاهد، والراهن والغابر، وقالوا: مما يدل من فضل الكلام على الصمت، أنك بالكلام تخبر عن الصمت وفضله، ولا تخبر بالصمت عن فضل الكلام، ولو كان الصمت أفضل لكانت الرسالة

صمتا، ولكان عدم القرآن أفضل من القرآن» (الجاحظ، رسائل الجاحظ، دس، صفحة 259)، والجاحظ المعتزلي يستدل وفق حجج عقلية على أفضلية الكلام على الصامت، ويستدل ذلك على فضل القرآن الذي هو كلام الله على الصمت الذي لا تتعدى فائدته سوى المتكلم الذي تكون مقصديته أحادية لا تبلغ الآخر، أي أن الصمت له فائدة محصورة ومحدود في نطاق واحد، على عكس الكلام الذي تكون فائدته متعددة الغايات.

والكلام والمتكلم والسامع يشترطهما الجاحظ لتأدية الخطاب «انتبه الجاحظ إلى أن الفعل اللغوي مهما كان الحيز الذي يتنزل فيه، ويقطع النظر عن مقاصده منجزه وغاياته تقوم على ثلاثة عناصر رئيسية تمثل الحد الأدنى للبيان اللغوي وهي المتكلم والسامع والكلام» (صمود، 1981، صفحة 182). ويشترط الجاحظ البيان في أداء هذا الخطاب «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام» (الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 76). يشير الجاحظ أن وظيفة الإفهام هي أهم ما يُعَوَّل عليها في نجاح العملية الخطابية، فمدار الخطاب منطلقه المتكلم عبر لغة محددة إلى سامع مخصوص.

إذن ف شروط الخطاب عند الجاحظ، ثلاثة هي (المتكلم، والسامع والكلام)، وهذه العناصر الثلاثة لا بد أن تشكل عملية تواصلية، لا يستقيم البيان معها، إلا بنهوض الخطاب على عنصر (الفهم والإفهام) بين المتكلم والسامع، فلا يمكن أن يحقق الخطاب مقصدية ما في غياب عنصر الإفهام، والذي يمكن السامع من الإنصات والأخذ بمحتوى الخطاب، أو العزوف عن الاستماع، والجاحظ بهذا التنظير يفتح أسس الخطاب الذي يؤثر في السامع، وهي الغاية الأولى التي يجري إليها المعتزلة.

■ المتكلم/ المخاطب:

تحدث الجاحظ عن شروط لا بد أن تتوفر في المتكلم، تجعله قادراً على أداء الوظيفة التكاملية للخطاب، «ومن جملة المواضيع التي حظيت باهتمام المعتزلة والتي تتصل اتصالاً مباشراً ووثيقاً بعلوم البلاغة والبيان موضوع مخارج الحروف، وضرورة أن يكون المتكلم والخطيب بليغاً ممتلئاً القدرة على إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة وأن لا تكون فيه عيوب في النطق» (الربيعي، 2001، صفحة 50). وكل من هذه المقتضيات مصدرها المتكلم، إذ يعمل على مراعاته، فقد أودع الجاحظ في الخطيب صفات محددة، «وكانوا يمدحون الجهر الصوت، ويذمون الضئيل الصوت، ولذلك تشادقوا في الكلام، ومدحوا سعة الفم، وذموا صغير الفم» (الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 120، 121)، وهي حسبه تساهم في نجاعة الأداء الخطابي،

إذن يمكن أن نوجز بعض أسس الخطاب الناجح حسب الجاحظ في العناصر الآتية:

بلاغة المتكلم بأن تكون مخارج حروفه سليمة، خاليا من عيوب النطق (أمراض الكلام كتأتأته، واللجلجة، واللثغة)، وقد رأينا سابقا كيف كان يحرص واصل بن عطاء على هذه المسألة حرصا، فنزه لسانه من اللثغة، وأصبح خطيبا بليغا يشهد له.

صفات الخطيب: وللمتكلم صفات خلقية ذكرها الجاحظ، وكان العرب يمدحون جهر الصوت، فالجهر يوجب الاستماع، ويبعث الهيبة في النفوس، وضآلة الصوت ضعف في المتكلم، بحيث لا يشد المستمع إليه، إضافة أنهم حرصوا على سعة الفم وصغره، فسعة الفم تكون مخارج الأصوات فيها سليمة، كل صوت يعطى حقه، على عكس الصغر الذي تكون مخارج الحروف فيه ضعيفة، غير سليمة.

انزال الناس منازلهم (المناسبة): وهذه المقولة من أهم ما جاء في كتب الجاحظ، وهي هنا مراعاة المتكلم للسامع، حتى تتحقق الوظيفة الإفهامية، فلا يجب أن يُتحدث مع الأُمِّي بلغة العالم العارف، ولا يجب على إمام المسجد أن يتحدث بلغة واحدة، لغة العالم والمتعلم، فالمسجد بيئة توجيهية إرشادية تضم مختلف شرائح المجتمع، وعلى الخطيب مراعات هذه الفروقات الفردية.

ومن ثم يستحسن قَبُوله من السامع «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ» (الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 144). فهذه شروط الخطابة، فالثلاثة الأولى خصت بالمتكلم، والرابعة والخامسة خصت بالخطاب نفسه.

كما ذكر مقومات العملية الخطابية التي لا بد أن ترافق الخطيب «ثم إن الخطابة تتأسس على ما يمكن أن نسميه المواجهة ذلك أن الخطيب يلقي كلامه في حفل، والتوجه إلى الجماعة في مناسبة معلومة وموضوع مضبوط أمر غير عسير يتطلب من المتصدر له خصالا نفسية، وشخصية تشد أزره وتقوي عزمه في كلامه على ما يقتضيه المقام، فلا تبرز عليه علامات الارتباك والرهبة» (صمود، 1981، صفحة 233). وهذه مجمل الصفات وجب على الخطيب الاتصاف بها، كي يؤثر في السامع، إضافة إلى كونها من مقومات الخطاب الناجح.

■ الكلام/ الخطاب:

لقد كان الكلام من أكبر ما تحدث عنه الجاحظ «يحتل الحديث عن خصائص الكلام أكبر جانب من تأليف الجاحظ البلاغي، فهو منطلق سعيه إلى ضبط نواميس البيان وغايته» (صمود، 1981، صفحة 251). وقد كان عنصر الاختيار من أهم الخصائص التي ربطها الجاحظ ببلاغة الكلام وبيانه «ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه مخيرا في جنسه وكان سليم الفضول، بريئا من التعقيد، حبيب إلى النفوس واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخف على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره» (الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 80). وهذا الاختيار له تأثير في نفس السامع، فيحبب إليه الاستماع دون ملل، أو دون كسر من رتابة السمع، ويقول كذا في حسن اختيار اللفظ «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي و[المدني] وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ» (الجاحظ، الحيوان، 1988، صفحة 131). ففي مستوى الكلمة حدد الجاحظ شروط فصاحتها، «والفصاحة في تصور صاحب البيان والتبيين تنطلق من بنية اللفظ الصوتية وانسجام الحروف المركبة وتآلفها» (صمود، 1981، صفحة 266)، وأول هذه الصفات أن تكون سهلة المخرج، يقول الجاحظ: «وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخرج» (الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 67). كذا أن يكون حسن المخرج، يقول الجاحظ: «خطب الجمعي خطبة نكاح أصاب فيها معاني الكلام، وكان في كلامه صفير يخرج من موضع ثنياء المنزوعة (...) إلا أن فضله بحسن المخرج والسلامة من الصفير» (الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 58، 59). هذا على مستوى الكلمة، أما على مستوى الحرف فقد أعطى له شروطا للفصاحة البنية، «فأما اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الضاد ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم أو تأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم أو تأخير» (الجاحظ، البيان والتبيين، صفحة 69). وذلك لثقلها على اللسان، وعدم استساغتها من طرف السامع، وبالتالي نسف من جهود المخاطب في إنجاح العملية الخطابية.

6. خاتمة

- المعتزلة فرقة كلامية إسلامية، نصبت نفسها للدفاع عن العقيدة الإسلامية، فبسطت فكرها المستمد من منهجها، القائم على العقل والحجة والبرهان، ويمكننا أن نجمل النتائج المتوصل إليها في النقاط الآتية:
- قادت المعتزلة خدمات جليلة للفكر الإسلامي، ويعلو هذه الخدمات القرآن الكريم، والعقيدة الإسلامية.
 - إن من أهم منطلقات المعتزلة في خدمة الدرس العربي هي المناظرات، فحين تعددت الشّرع والمذاهب في فهم الدين، استحدثت لنفسها منهجاً خاصاً في تعليم الناس، لوعها التام أنّ الطريقة السليمة لإقناع لناس والتأثير في قلوبهم ونفوسهم، هو التمكن من أفانين القول، والكلام البين البليغ، فكان لهم تراثاً في البلاغة من أعظم ما جادت به القريحة التراثية.
 - يعتبر العقل السمة المميزة والجديد الذي أثره المعتزلة في فهم النص القرآني، فاستخدموا العقل في فهم الدين، وتأسيس لعلوم البلاغة، انطلاقاً من البحث في قضية الإعجاز، التي استفادت منها البلاغة فائدة عظيمة.
 - للمعتزلة شيوخ عظام، كلهم ساهموا في خدمة الدرس البلاغي، يتقدمهم الجاحظ، صاحب الطول في نشر ظلال المعرفة البلاغية، بما ضمه في كتبه النفيسة من إشارات قيمة، خدمت البيان العربي.
 - تحدث الجاحظ عن المتكلم وخصائص الكلام وكذا تكلم عن السامع، في مقولته الشهيرة لكل مقام مقال، وبالتالي ظهرت عنده مقومات لسانية خطابية هي من صميم النجاعة التواصلية، ولعل الذي مهد للجاحظ هذا السبق في إعطائه نظرة متكاملة لمفهوم الخطاب تنطلق من المتكلم عبر وسيلة (اللغة) قاصدا السامع أو المتلقي، هو اهتمامه الشديد ببلاغة الكلام وقضية البيان التي جاءت مبثوثة في كتبه.
 - إن الذي مهد للجاحظ رسم الحدود الأولى للبيان العربي هو ارتكازه على العقل في الاستنباط والتحليل والبناء والتنظير، فهو الذي ينتهي إلى المدرسة العقلية (المعتزلة)، وهو تلميذ زعيم المعتزلة في بغداد بشر بن المعتمر.
- وعليه كباحثين في الدرس اللغوي البلاغي، نقترح من خلال هذه الدراسة أن تعقد ندوات وملتقيات وطنية أو دولية، لإبراز الدور الكبير الذي قدمته المعتزلة في خدمة البيان العربي، لأن الملتقيات ستكون أكثر تشعباً بمحاورها، فتتعدد المداخلات في جميع نواحي الضروب البلاغية التي مسها هذا الفكر العقلي، لأن الفكرة السائدة، أن المعتزلة فرقة كلامية دينية، قد زاغت وضلت وأضلت كثيراً في فهم النص القرآني، وأحدثت بدعا ومنكرا من القول في كثير من مسائل العقيدة، إلا أن لها جانبا عظيما في خدمة الدرس العربي والبلاغي بصفة أكثر خصوصية.

7. قائمة المراجع:

- الجاحظ، ع. (1988). *الحيوان*. (Vol. 3) مصر: مؤسسة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- الجاحظ، ع. (s.d.). *البيان والتبيين*. (Vol. 2) مصر: مكتبة الخانجي.
- الجاحظ، ع. دس. (رسائل الجاحظ). (Vol. 1) مصر: مكتبة الخانجي.
- الربيعي، ف. (2001). *تاريخ المعتزلة*. مصر: الدار الثقافية للنشر.
- الزمخشري، ج. أ. (1998). *الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. (éd. 21, Vol. 1) السعودية: مكتبة العبيكان.
- الصالح، م. & السيد، م. (2001). *مدخل إلى علم الكلام*. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر.
- العوا، ع. دس. (المعتزلة والفكر الحر. دب: الأهالي للطباعة والنشر.
- القادر، ح. ع. (1998). *أثر النحاة في البحث البلاغي*. مصر: دار غريب للطباعة والنشر.
- المبرد، م. دس. (الكامل في اللغة والأدب. السعودية: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف والدعوة والرشاد.
- المرتضي، أ. (1988). *طبقات المعتزلة*. لبنان: دار المنتظر.
- المسدي، ع. أ. (1992). *قراءات مع الشاذلي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون*. (éd. 103) الكويت: دار سعاد الصباح.
- أمين، أ. (2012). *النقد الأدبي*. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- خلكان، أ. ب. (1988). *وفيات الأعيان*. (Vol. 6) لبنان: دار صادر.
- زايد، ع. ع. (1982). *البلاغة العربية تاريخها مصادرها ومناهجها*. دب: مكتبة الشباب.
- صمود، ح. (1981). *التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس*. تونس: منشورات الدار التونسية.
- ضيف، ش. (1955). *البلاغة تطور وتاريخ*. مصر: دار المعارف.
- قصاب، و. (1991). *التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة*. قطر: دار الثقافة.
- محمد، أ. (1991). *إحصاء العلوم*. لبنان: مركز الإنهاء القومي.